المشرق

المئة الثالثة عشرة

لوفاة البابا القديس غريغوريوس الكبير

نظر للاب لويس شيخو اليسوعي

في اليوم الثاني عشر من شهر اذار من السنة ٦٠٤ نقل الله الى دار كرامته احد اصفيائه القديسين الذين اقامهم ليكونوا نوراً للعالم وفخراً لشعبه اسرائيل نريد القديس غريغوريوس الاوّل الذي خصّهُ التاريخ بلقب لم يَنَلهُ الّا بعض افراد لا يتجاوزون عدد الانامل فسُمّيَ بالكبير

إي والحقّ انهُ لكبير اذ فاق امثالهُ بكل المزايا التي تجعل الرجال عظاماً . كان كبيراً بشرف اصلهِ وبالخصال التي ورثها من اجدادهِ الكرام . كبيراً بحسبهِ وما امتاز بهِ من الفضل العظيم . كبيراً باعمالهِ في خدمة الكنيسة كقاصدها الرسوليّ وكرديناليها وحبرها الاعظم . كبيراً بمناصبهِ لقبائل البرابرة الذين لولاهُ لسحقوا ايطالية سحقاً وطحنوا عاصمة الكثلكة طحناً . كبيراً بالخوارق المتعدّدة والكرامات التي اجراها الله على يده في حياتهِ وبعد مماتهِ

ما كلُّ من طلب المعالي نافذاً فيها وما كلُّ الرجال فحولا

وقد اقرَّ بفضل هذا القديس الجليل ليس فقط معاصروه وكَتَبة حياتهِ بل لم يزل صدى مساعيهِ يتردّد جيلاً بعد جيل الى اقاصي العصور . وحسبنا القول بانَّ الكنيسة

اليونانيَّة ادرجتهُ في عداد قديسيها وتقيم لهُ ذكرًا في سنكسارها. وفي اعمال فوطيوس البطريرك القسطنطيني (١ نبذة مستحسنة لخَّص فيها ترجمة حياتهِ واطرأ برَّهُ وهو يدعوه غريغوريوس عزيز الله (ὁ θεοπρόσιτος Γρηγόριος) وغريغوريوس الالهي (ὁ θεῖος Γρηγόριος) وغريغوريوس العجيب (ὁ θαυμάσιος Γρηγόριος) المتقدّم في سبيل القداسة على من سواه. ثم يعدّد اعمالهُ الصالحة والعجائب التي جرت على يده جزاء على صدقاتهِ. وفي السنكسار المنسوب لباسيليوس الملك الرومي ما يربي على هذه المدائح وفيهِ رتبة وفرائض تتلى يوم عيد البابا المذكور. وقد حدا بالكنيسة اليونانيَّة تعظيمها لهذا القديس على ان ينقل كُتُبَها تآليفهُ النفيسة من اللاتينيَّة الى اليونانيَّة

فلا غرو اذًا ان كانت الكنيسة الرومانيَّة في هذه السنة لم تشأ ان يمرّ عليها هذا اليوبيل القرنيّ دون ان تقيم الحفلات تنويهًا بفضل ذلك الرجل الفضال الذي احرز لها اطيب ذكر وجلّيها بهلاءة من المجد والفخر. ومن ثمَّ احتفلت رومية العظمى في اثناء شهر نيسان باعياد عظيمة اشترك فيها الكثيرون من رجال الاكليروس واعيان الكاثوليك. وعقد في هذه السنة مؤتمر علميّ دام ثلاثة ايَّام تباحث فيهِ صفوة من علماء ايطالية وفرنسة والمانية وانكلترَّة وبلجكة وهولندة ولسبانية بلغ عددهم نحو الثمانمائة فعدَّدوا محامد صاحب العيد وبيَّنوا في مقالات شتَّى انَّ ذاك الحبر الجليل كان اماماً يتقدَّم اهل زمانهِ في كل سُبُل الفضل ويحملهم الى كل المطالب الشريفة تحت لواء الدين حتى لا تكاد تجد عملًا مشكورًا اتى بهِ معاصروهُ الَّا وللقديس فيهِ يدٌ واسعة

وقد كان بودّنا ان نلخّص في هذه المقالة الفصول التي تلاها اصحاب المؤتمر وتثبت ما وصفوه من مساعي ذلك البابا الخيريَّة في سبيل الكنيسة والهيئة الاجتماعيَّة والعلوم الدينيَّة والدنيويَّة الَّا ان تعداد هذه الاعمال المبرورة يؤدّي بنا الى الطول المملّ فآثرنا ان نحصر البحث في ما يهمّ بلادنا ونعتبر غريغوريوس الكبير في علائقهِ مع الكنائس الشرقيَّة ليرى القرَّاء محبَّتهُ الابويَّة لابنائهِ الشرقيين واهتمامهُ بصلاحهم وعنايتهُ بامورهم الروحيَّة وسعيهُ بترقية شؤونهم والذبّ عن حقوقهم. ويتحقَّقوا ان الاحبار الرومانيين لم يزالوا يرعون بنشاط هذا القسم من قطيعهم الناطق الذي وكل بهِ الربّ اليهم اذ قال لهم بشخص بطرس الصفا: ارعَ خرافي. ارعَ نعاجي

١) راجع مكتبة العدد ٢٥٣ في مجموع آباء اليونان لمين ج ١٠٤ ص ٩٥

ولد غريغوريوس في رومية العظمى نحو سنة ٥٤٠ للمسيح بنيف وثمانين سنة قبل الهجرة من اسرة فاضلة . وكان ابوهُ غرديان وامهُ سلفيا ينتميان الى اصل عريق في الشرف بين الرومان وهما يسكنان في قصر شاهق على جبل قاليوس (Celius). ليس بعيدًا من قصر قدماء الامبراطرة وكانا مع شرفهما اعرف بتقواهما واشهر بفضائلهما السامية التي ورثوها من اجداد تكرّم الكنيسة بعضهم كاولياء الله فربّيا ولدهما على آداب الاعيان والمسيحيين معًا ولمّا كان غريغوريوس متوقد الذهن واسع المدارك لم يلبث ان نبغ في كل العلوم التي كانت شائعةً في عصرهِ فعُرف بالفضل والفضيلة واخذ الجميع يشيرون اليهِ بالبنان ويحذون مثالهُ فلما ذكرهُ الى قيصر الروم يستينوس الثاني فعهد اليهِ بوكالة رومية

الّا ان هذا المنصب السامي لم يكن ليأسر قلبهُ بحبّ العالم وبينما كان يراه الناس لابسًا البزّ والارجوان كانت اميالهُ تجنح بهِ الى الزهد بالدنيا والتنسُّك لا يفكر الّا بامور الاخرة . ثم انتقل ابواه في اثناء ذلك الى دار البقاء فاسرع وحيدهُما وباع كل ارزاقهِ عملًا بكلام الانجيل المقدّس واعطى ثمنهُ للفقراء او خصّهُ بابتناء الاديرة للرهبان فمن ذلك ستّة اديرة انشأها في صقليّة من تليد مالهِ وكذلك جعل بيت ابيهِ في رومية ديرًا على اسم القديس اندراوس وانقطع فيهِ مع عدد من الرهبان للاعمال النسكيّة لا سيّما الصلاة وتصنيف الكتب وخدمة المرضى على طريقة القديس مبارك ابي الرهبان الغربيين وذلك في سنة ٥٧٥ وكان عمرهُ وقتئذٍ ٣٥ سنة . فعمل هذا المثل في قلوب الناظرين والسامعين ايّ عملٍ وما عمّ عظام ايطالية واعيان رومية ان يجروا على آثاره ويزهدوا في ملاذ الدنيا ليوجّهوا الالحاظ الى ما وراء هذه الدنيا الزائلة فتلمذ لهُ قومٌ من نخبة الرجال ساعدوهُ بعد ذلك في خلاص الامم وتنصيرها نخصُّ منهم بالذكر القديس اوغسطينوس رسول الانكليز

على انّ الله الذي كان اعدّ وليّهُ ليجعلهُ اناءً مختارًا لم يشأ ان يبقى هذا النور تحت المكيال فما مرّ عليهِ ثلاث سنوات وهو في منسكهِ الذي كان يدعوه فردوسهُ الارضيّ حتى انتدبهُ البابا بيلاجيوس الثاني الى مهمّة جليلة لم يرَ غيرهُ قائمًا بها فارسلهُ الى ملك الروم طيباريوس قيصر بصفة قاصد رسولي وسفير دوليّ . وكان ذلك بعناية خاصّة

منهُ تعالى قضى غريغوريوس في عاصمة الشرق ردحاً من حياتهِ ويعيش بين كبار الدولة ونخبة الاكليروس فيُحسن يوماً اذا جلس على السدَّة البطرسيَّة رعاية الكنيسة الشرقيَّة ويؤدي لابنائها كلَّ ما امكنهُ من الخدم الروحيَّة والزمنيَّة

*

وصل غريغوريوس الى القسطنطينيَّة وقد سبقتهُ اليها خبر فضلهِ وشهرة قداستهِ فرحَّب بهِ طيباريوس ورجال دولتهِ وتحفَّى بهِ الاكليروس الشرقيّ الذي كان يتقاطر الى العاصمة من كل انحاء المملكة. فنال من تحفات الامبراطور ما كان يزملهُ لردّ غارات اللمبرديين عن رومية وشدَّد في الاكليروس وثاق الطاعة للكرسيّ الروماني

وقد تقرَّب القديس في اثناء اقامتهِ في القسطنطينيَّة الى كثير من ذوي المراتب العالية والفضل الصميم في مقدَّمتهم الامبراطورة قسطنطينة زوجة موريقي الملك. والبطريق نرسيس القائد الشهير وطبيب الملك تاودورس وغيرهم ايضاً وبقيت علائق الوداد بين القديس وبينهم وثيقةً طول ايَّام حياتهِ كما تشهد عليهِ الرسالات المتعدّدة التي تُرى في جملة اعمالهِ

وكان غريغوريوس يتردَّد على بطريرك القسطنطينيَّة وهو يومئذٍ القديس اقتيشيوس الذي عُرف بقداسة حياتهِ وغيرتهِ في ردّ البدع فنُفي مدَّةً لذلك ثم أُعيد لكرسيّهِ فكان القاصد الرسوليّ يثني على مساعيه ويشدّد ازرهُ في حفظ وديعة الايمان سالمةً. ولمَّا عرف غريغوريوس انَّ السيِّد البطريرك قد وهم في امر قيامة الاجساد وزعم انَّ الاجساد التي ينشرها الله يوم الدين هي غير اجسادنا التي في الحياة لم يزل يبيّن لهُ غلط هذا القول ويردّ عليهِ بالحجج العقليَّة والنصوص النقليَّة حتى ارعوى عن زعمهِ وامر بحرق الكتاب الذي كان الفهُ في ذلك ولمَّا حضرتهُ الوفاة جعل يكرّر امام الحضور جهاراً: اني أؤمن بانّي سأقوم يوماً في جسمي هذا فانال به جزاء اعمالي

وممَّا استفادهُ قاصد البابا من اقامته في القسطنطينيَّة انهُ درس اللغة اليونانيَّة التي كانت آدابها اخذت في التقهقر في انحاء الغرب حتى لم يعد يدرك اسرارها الَّا القليلون فسهَّل لهُ هذا الدرس تقرُّبهُ الى اعيان الدولة والتباحث في شؤون الدين والاطلاع على آثار الكنيسة اليونانية

وممَّا اكتسبهُ ايضاً من اقامتهِ في تلك الحاضرة تنظيم الرتب الكنسيَّة فانَّ

القديس كان يحضر الحفلات الدينيَّة التي تُقام بازاء القيصر في كنائس القسطنطينيَّة وخصوصاً في كنيستها الكبرى التي تمَّ بناءها بستنيان قبل عهده بثلاثين سنة فقط فكان يأخذهُ الاندهال ممَّا يراهُ فيها من الرتب الجليلة والمناسك الدينيَّة الحافلة في نظام تامّ وابهَّة عظيمة. واكثر ما كان يعجبهُ الغناء الكنسيّ الشرقيّ فكان يُصغي اليه ويتعشَّق في معانيه. فلمَّا صارت اليه مقاليد الكنيسة الكاثوليكيَّة تذكَّر هذه الرُّتب وجرى على مثال كثيرٍ منها في رومية وسعى بنشرها في الكنائس الغربية. وانشأ ايضاً مدرسةً للغناء تولَّى تدبيرها بنفسه وعلَّم الغناء الكنسي الذي عُرف به فدُعي الغناء الغريغوريّ وكان القديس قد حذا فيه حذو الكنائس الشرقية مراعياً فيه مقتضيات الاحوال والتقليدات الغربية. وقد بقي حتى يومنا هذا مخطوطات ليتورجيَّة زاهية الى عهده تدلُّ على همَّتهِ في اصلاح الرتب وتنظيمها

*

قضى غريغوريوس في جوار القيصر ثماني سنين وهو مثال حيّ لكلّ الفضائل الكهنوتيَّة يعيش في بلاطهِ مع الرهبان الذين اتى بهم من رومية عيشة النسَّاك لا يخرج من داره الَّا لفرائض مهنتهِ او لنفع القريب. وكان في اثناء ذلك قد توفي طيباريوس سنة ٥٨٢ وصار الامر الى القيصر موريقي فنال عنده غريغوريوس الحظوى كما كان في عهد خلفهِ وبقي عنده الى سنة ٥٨٦ حيث استدعاه البابا فاسرع راجعاً الى عاصمة الكثلكة. فشكره الحبر الاعظم على خدماتهِ الجليلة للكنيسة الرومانيَّة واراد ان يجازيهُ بترقيتهِ الى اشرف المناصب الكنسيَّة لكنَّ القديس الحَّ على الاب الاقدس ونال منهُ ان يعود الى قلَّايتهِ على جبل قاليوس في دير القديس اندراوس ويعيش مع اخوانهِ الرهبان منقطعاً الى اعمال الزهد راقياً في مدارج الكمال

فذاق غريغوريوس حلاوة العيشة النسكيَّة مدَّةً الى وفاة البابا بيلاجيوس الذي مات بالوباء سنة ٥٩٠ وكانت النوائب والنكبات كالطاعون والزلازل والحروب قد نزلت بايطالية وعاصمتها رومية حتَّى ظنَّ كثيرون انَّ الساعة قريبة. فلمَّا رأى الاكليروس الروماني والشعب ما غالهم من اغوال الزمن وما اصاب بلادهم من بوائق الدهر لم يجدوا من يقوى على حمل اعباء البابويَّة كمثل رئيس دير القديس اندراوس. فلمَّا عرف رجل الله ما عوَّل عليهِ الرومانيُّون هرب من وجههم واختفى في مغارةٍ ليتجو من

الرئاسة. بيد انّ مساعيهُ حبطت وصادق مورقي على انتخابهِ فلم يرَ بدًّا من الجلوس على كرسي عمامة الرسل والخضوع لمشيئةِ تعالى وذلك في بعض شهور سنة ٥٩٠

واذ عرف الشرقيون خبر انتخابهِ جاهروا بترحيبهم وارسلوا للقديس يهنئونهُ بما نالهُ من الرتبة السامية ويعلنون تسلّمهم غير المنقصم بالكرسي الرسولي ولدينا الاجوبة التي حرّرها غريغوريوس لبطاركة الشرق شاكرًا لهم اخلاص وداده‍م وطالبًا اليهم ان يرحموهُ ويتوسّلوا الى الله لئلّا ينوء بهِ حملهُ الباهظ

وما كاد الحبر الجديد يتبوّأ العرش البابوي حتى صرف كل همهِ لاتمام واجبات منصبهِ العالي. وباشر ما تراهُ من الاصلاح بالبلاط البابوي ليجد المسيحيون فيهِ وفي حاشيتهِ قدوةً صالحة وعلمًا منيرًا لكل الفضائل متشبهًا بذاك الذي أُقيم لهُ نائبًا. ولمّا كانت حاجات ذلك العصر قد تعدّدت بتعدّد النكبات والبلايا تصدّى القديس لسدّها بغيرة ملتهبة وعناية ابويّة فبنى المستشفيات والمآوي واطعم الجياع وآسى المحتاجين واقام لهُ الوكلاء في ايطالية وصقلية ليطلعوهُ على مدخولات الكرسي الرسولي ويعرّفوهُ باسماء البائسين ليمدّ اليهم يد المساعدة

ثم رأى اللمبرديين يستعدّون لفتح رومية والمدن التي كانت وقتئذٍ تحت حكم ملوك الروم فكاتب القيصر بذلك واستنهض همم عمّالهِ لردّ هذه الغارات. الّا انّ صوتهُ لم يلاقِ اذنًا صاغية فاضطر ذاك الحبر الهمام ان يحصّن المدينة ويجنّد الجنود ليوقف الاعداء في حدودهم ولولاهُ لفُتحت رومية ونُهبت غير مرّة فعرف لهُ الشعب فضلهُ ودعوهُ مخلّص رومية

ولم تكُ هذه الاعمال لتشغل القديس عن التأليف كما يُستدلُّ من الكتب العديدة التي وضعها وهي كأنها تشهد لهُ بالعقل الراجح والعلم الواسع وقد اهّلتهُ بان يُنظم في عداد معلمي الكنيسة الغربيين مع لاون الكبير وايلاريوس وايرونيموس واوغسطينوس وامبروسيوس فشاعت كتاباتهُ ونُقلت الى لُغات شتّى

*

ولكن دعنا نعتبر في غريغوريوس راعي الكنيسة الشرقيّة واباها ونبيّن ما كان بينهُ وبين ابنائها من الروابط المتينة. كان هذا البابا العظيم يحبُّ الشرق والشرقيين ويشي على مفاخرهم ويدافع عن تعاليم مجامعهم الاولى. فلمّا رأى في ايطالية بعض

الاساقفة كقسطنطين اسقف ميلان وساويروس رئيس اساقفة اكيلة لم يرضوا بعد بتقارير الجمع المسكوني الخامس الملتئم في القسطنطينية خوفًا منهم بان يضعفوا قوة تعاليم الجمع الرابع الخلقيدوني لم يزل البابا يلح عليهم ويبين قانونية الجمع المذكور حتى ازال الفتنة وقص جناح الشقاق وحفظ كنائس الشرق والغرب في وحدة الايمان

وقد اظهر البابا محبتهُ لكنائس الشرق بما انفقهُ عليها من الصدقات جاريًا بذلك على آثار سلفائه الذين لم يزالوا منذ بدء النصرانية يخصون المسيحيين الشرقيين بقسم من حسناتهم التي يوزعونها على المؤمنين ورعاتهم . ومن مساعيه المبرورة انهُ انشأ في القدس الشريف مستشفى وكل بادارته الى احد الكهنة من رهبانه يُدعى بروبس وداوم بعد ذلك على حسناته اليه كما انهُ ساعد خلفهُ الكاهن فيلبوس وارسل اليه مبلغًا كبيرًا من المال

ومن مبرَّاته انهُ ارسل الى يوحنا رئيس دير طورسينا فرشًا للمأوى الذي ابتناه للعجزة والزوَّار

ومنها ايضًا انهُ تبرَّع لبطريرك الاسكندريَّة اولوجيوس بعدد من الحلل الكهنوتيَّة وبكتيَّات من الاخشاب لمباني خيريَّة كان هذا القديس يُعنى بتشييدها في بلاد مصر

وبلغ غريغوريوس انَّ احد التجَّار من النصارى السوريين عجز عن وفاء ديونهِ ولنَّ غرماءه قبضوا على ابنهِ ليبيعوه فمن وقته كتب الى احد وكلائهِ ليفكَّ اغلال الشاب الاسير ويدفع للدائنين حقَّهم ويتصدَّق الى التاجر

ولو راجعنا رسائل القديس غريغوريوس الكبير لوجدنا كثيرًا من هذه الاعمال الخيريَّة نالها من جوده نصارى الشرق . وكان وليّ الله اذا منح صدقةً لا يدعوها بهذا الاسم بل يسميها بركةً من القديس بطرس لتخفّ مؤونة الشكر على الطالبين

وربَّما اتاه كتاب من بعض المحتاجين يطلب منهُ شيئًا فكان يشكرهُ على ثقتهِ بهِ . وكأنَّ فيهِ قال معاصرهُ زهير:

تراهُ اذا ما جئتهُ متهلِّلًا كأنك تعطيه الذي انتَ سائلهْ

وكان على خلاف ذلك يساء ممَّن يسيئون الظن في كرمهِ . اخبر مؤرخوه انَّ ايليًا احد كهنة بلاد ايزوريا طلب منهُ بعض الكتب الليتورجيَّة لكنيستهِ مع مبلغ كبير من

المال ثم لستكثر ما طلب وكتب الى البابا انَّ نصف هذا المبلغ يكفيه فلامهُ القديس على قلة امله فيه وارسل اليه المبلغ كلَّهُ واضاف اليه نصفاً آخر

*

ومن اعمل النظر في مجموع رسائل القديس غريغوريوس الكبير تعجَّب مما كان بين الحبر الروماني وبين مشاهير الشرق في عصره من الصداقة والوداد فمن ذلك مكاتبتهُ الى القديس اولوجيوس بطريرك الاسكندريَّة يتباحث فيها القديسان عن امور الدين والعلوم الكتابيَّة والآداب الكنسيَّة . وفي المجموع عينهِ رسائل ثلثة من بطاركة اورشليم يوحنَّا الثالث وعموص واسحاق . ولدينا كذلك رسائلهُ لبطاركة انطاكية وخصوصاً للقديس انستاس الذي حملهُ حبُّهُ لغريغوريوس الكبير على ان ينقل الى اليونانيَّة كتابهُ في الرُّعاة (Pastoral) وكان البابا يجلُّ سميَّهُ غريغوريوس خلف انستاس ويطلب دعاءهُ

ولهُ ايضاً رسائل أُخرى وجَّهها الى احد مشاهير النسَّاك الشرقيين وهو القديس يوحنَّا رئيس دلوريتا صاحب سلَّم الكمال الذي به دُعي السُّلَّمي (Κλίμαξ) وكان البابا غريغوريوس يعرف فضلهُ ويسأل دعاءه . وللقديس مرسلات أُخرى عديدة لاهل الشرق اوفدها لذوي المناصب الدنيويَّة واصحاب المراتب السامية من حشم الملك موريقي ومن عمَّال الدولة وغيرهم وكأنها تشعر بما طُبع عليهِ الكاتب الجليل من الحنوّ الابوي ومن الغيرة لصوالح الدين فتراه يعزّي تارةً ويهنّئ اخرى ويرشد حيناً وحيناً ينذر وفي كل حال يبعث الهمم لطلب العلويَّات والزهد بالسفليَّات

على انَّ كتابات غريغوريوس الى نصارى الشرق لا تدلُّ فقط على وداد الصديق وعواطف الاب الحنون بل ترى فيها ايضاً الراعي والرئيس الذي قلَّدهُ الربّ تدبير كنيسته جمعاء واقامهُ كارميا النبيّ على الامم ليقلع ويهدم وينقض ويبني ويغرس . ومع انَّ القديس كان عريقاً بالتواضع لا يحبُّ الجاه والشرف بل يعتبر نفسهُ كعبد عباد الله ويوقّع بهذا الاسم على رسائله وبها يفتتح مقالاتهِ تراهُ يناضل عن حقوق الكرسيّ الرسولي ويعدّ رئاسته كاحدى المعتقدات الجوهريَّة التي علَّمها المسيح في انجيله اذ جعل بطرس الصخرة التي عليها بنى بيعتهُ وعهد اليه بان يثبت اخوتهُ في الايمان ويسوس الكنيسة جمعاء رعاتها ورعاياها . ومن ثم كان البابا القديس يجري في ذلك على مقتضى تعليم سلفائهِ ويحكم على الكنيسة الشرقيَّة كحكمه على الكنيسة الغربية دون ان

يحتجّ احد عليه بالطمع ويدّعي بانّهُ يتعدّى طورهُ وينسب لنفسه سلطةً لم يعطَها . وفي كتاباته شواهد عديدة تدلّ على انهُ كان يعتبر الكرسي الرسولي كمصدر الرئاسة الدينية في الكنيسة وانّ الذي لا يخضع لحلف هامة الرسل هو خارج عن كنيسة المسيح . وقد روى المشرق سابقًا (٥ : ٤٣٧) كلامهُ الى بطريركي انطاكية والاسكندريّة حيث يقول بان مقام كرسيّيهما منوط بكنيسة رومية وكرسيّ هامة الرسل بطرس الذي خوّل لانطاكية رتبتها بجارسه مدةً على كرسيها وجعل الكرسي الاسكندري ممتازًا بارساله اليه تلميذهُ مرقس

وكان غريغوريوس يسهر على وديعة الايمان بين نصارى الشرق لعلمه بان الامر معهود اليه من الربّ . وعليه ترى في عداد رسائله كتبًا عديدة الى بطاركة الشرق واساقفتها يثني على صور ايمانهم التي يرسلونها للكرسي الرسولي بعد انتخابهم ويحذّرهم من البدع ويستلفت عنايتهم الى ما فيه خير رعاياهم . وممّا سعى في استئصاله بينهم المتاجرة بالدينيات والسيمونيا فكان اذا سمع بانّ بطريركًا او اسقفًا اخذ شيئًا من المال او هديّةً ليرقي احدًا لرتبة الكهنوت كتب لهُ للحال ليوبّخهُ على فعله . وقد لام البطريرك اولوجيوس صديقهُ على قبوله هديّة من كاهن بعد ان سامهُ . وكان يوصي الاساقفة الشرقيين بالّا يكهّنوا غير رجال ذوي فضل مشهور ليكون دعاة الدين اهلًا بمقامهم فيرعوا شعب الله بالقداسة ويهذّبوهُ بالارشاد ويتقدّموهُ بكل الاعمال الصالحة . وقد بيّن قداسة البابا بيوس العاشر براءته التي اصدرها في نسبة يوبيل القديس غريغوريوس عظم اهتمامه في تثقيف الاكليروس وروى اقوالهُ الخطيرة في ذلك

وممّا ادّاه ايضًا هذا الحبر الروماني من الخدم لكنائس الشرق حرصهُ على محافظة الرسوم القديمة والقوانين المقرّرة في المجامع والمصادَق عليها من الكرسيّ الرسولي ولذلك كان يريد ان يكرّم الشرقيّون المجامع الاربعة إكرامهم للاناجيل الاربعة . ولمّا بلغهُ انّ بعض نسخ اعمال هذه المجامع دخلها زيادات وتحريف اهتمّ باصلاحها وتطبيقها على النسخ الاصليّة . وكتب لبطريرك انطاكية انستاس الصغير والى القائد الشهير نوميس في القسطنطينيّة يحذّرهما من بعض نُسخ من اعمال المجمع الافسيّ زوّرها المراطقة ونسبوا فيها اشياء لآباء المجمع لم يقولوها

ومن خدمهِ الجليلة ايضًا نحو الشرق اهتمامهُ بحفظ النظام الكنسيّ كما رتّبهُ الرسل

وقرَّرتهُ الجامع بحيث يبقى البطاركة والاساقفة في مقامهم لا يتجاوزون حدود سلطتهم ولا يتلقَّبون بالقاب جديدة لم يعرفها القدماء. ومن ثمَّ وثَب هذا البابا صديقهُ اولوجيوس الاسكندري الذي اراد ان يدعوه باسم البابا المسكوني لئلَّا يظن رؤساء الكنيسة انهُ يحصر في نفسهِ دون الاساقفة رئاسة البيعة. ولذلك كان يصدِّر كتاباتهِ بلقب آخر يدلُّ على تواضعهِ ويدعو نفسهُ عبد عباد الله ويرى جريَهُ في ذلك الاحبار الرومانيُّون من بعدهِ

ثمَّ أُخبر بانَّ بطريرك القسطنطينية يوحنَّا المعروف بالصوَّام يتلقَّب بهذا الاسم فكتب لهُ رسائل عديدة يبيِّن لهُ غلطهُ وما ينتج عن هذا الجشع والجد الباطل من الاضرار ومما قالهُ في احدى هذه الرسائل: «انَّ بطرس عامة الرسل قد أُعطي مفاتيح ملكوت السماوات وسلطة الحلّ والربط وتدبير الكنيسة ورعايتها ولا احد مع ذلك يدعوهُ الرسول المسكونيّ وانا الفقير خلفهُ في كرسيّهِ افتخر بان اكون عبد عباد الله أفيليق باخينا القسطنطينيّ يوحنَّا ان يدَّعي لنفسهِ بلقب الاسقف المسكونيّ». ولم يزل غريغوريوس الكبير مدَّة حياتهِ كلها يحتجّ على يوحنَّا وخلفه قرياقوس وينكر عليهما اتخاذ اللقب المذكور بل كتب للامبراطورين موريقي وفوقاس وللامبراطورة قُنسطنطينة ليبطلوا هذا اللقب الجديد المخالف للتقليد الكنسيّ فاستجاب فوقاس طلبتهُ

وكان نصارى الشرق يعرفون فضل غريغوريوس وعدلهُ فيلتجئون اليه بكل ثقة في قضاياهم ويرفعون اليه امورهم لينظر فيها ويحكم دون محاباة وآخذ بالوجوه. ومن اطَّلع على ترجمة حياته وجد نحو عشرين اسقفًا شرقيًّا رفعوا اليه شكاياتهم وطلبوا منهُ بان ينصفهم. منهم يوحنَّا اسقف خلقيدونية الذي كان قضى عليه يوحنَّا الصوَّام بالهرطقة فرفع امره الى الكرسيّ الرومانيّ الذي أبطل الحكم بعد الفحص المدقَّق وزكَّى الاسقف. وكذا فعل اثناسيوس رئيس احد اديرة ليكاونية الذي وُجد في خزانة ديرهِ كتاب للهراطقة فزعم اعداؤه انهُ من المبتدعين وحُكم عليه بالبدعة فسار الى رومية واثبت صحَّة ايمانه امام البابا فبرَّأ ساحتهُ ولام الذين قضوا عليهِ على صرامتهم المفرطة

ومن هذا القبيل ايضًا تبرير القديس غريغوريوس لادريانوس اسقف تيبة الذي كان رئيس اساقفته يوحنَّا مطران يستنايَّة من اعمال ايليريَّة عزلهُ عن الاسقفيَّة ظلمًا. فامر

غريغوريوس بان تُرفع الدعوى الى مجلسه وبعد النظر الطويل تحقَّق بان حكم يوحنَّا غير قانونيّ فابطلهُ . وعلى خلاف الامر قرَّر الحكم على انستاس اسقف انطاكية الذي ثبتت عليهِ الجنايات المنسوبة اليهِ فنزع عنهُ اسقفيَّتهُ . وكذلك أيَّد حكم اندراوس رئيس اساقفة قيكوميدية على يوحنَّا احد اساقفة ابيروس الذي احتلَّ مدينة كاسيوب في جزيرة كورفو واراد ان يخصّ رعاياها لنفسهِ دون رخصة اسقف الجزيرة ألقيسون

وكما كان غريغوريوس يهتمُّ برعاية الكنيسة الشرقية كان ايضاً يصرف عنايتهُ الى خزائنها وفي مجموع رسالاتهِ ما يثبت ذلك باقوى دليل منها كتاباتهُ الى الملكين موريقيوس وفوقاس يحضُّهما على البرّ وعلى حُسن سياسة رعاياهما . ومنها كتاباتهُ الى كبار الدولة في بلاط الملك والى عُمَّالها في الاقاليم البوزنطية يرشدهم فيها الى كل صلاح ويردّهم عن كل جناية . وقد كاتب ايضاً عدداً من سيّدات البلاط الملوكيّ كنَّ انقطعن الى الاعمال التقويَّة منهنَّ تيوتستا اخت الامبراطور فكان القديس ينشطهن ويثني على تقاهنَّ . ولمَّا عرف انَّ بعض الكهنة اخذوا عليهنَّ المغالاة في الدين وزعموا انهنَّ على غير هدًى كتب القديس ليدافع عنهنَّ وافحم المنتقدين

فترى مما سبق ما كان لغريغوريوس من النفوذ في الكنائس الشرقيَّة وكيف استحقَّ باعمالهِ الجليلة ان يُدرج عندهم في درج القديسين بعد وفاته . وفي السنكسار اليوناني مدائح جليلة في ذكره تشهد على اعتبار المسيحيين الشرقيين لسموّ فضائله وفيها مما شواهد على خضوع الروم قديماً لكرسي الاحبار الرومانيين وهذه بعض شذرات منها :

« ايها الراعي الكلي قدسهُ انَّك صرت خلفاً للهامة في كرسيّهِ وغيرته مما فطهَّرت الشعوب وقُدتها الى الله : انت الجالس على كرسي إمام قمة الرسل ولذلك جاء كلامك يا غريغوريوس اضوأ من البرق وكشعل ينير المسيحيين . انَّ الكنيسة الاولى قد ضمَّتك الى صدرها فأجريت على يدك سيول التعاليم الخلاصية . فسلام عليك يا سراج الدين الذي يضيء باشعَّة كلامهِ كل المسور ويا منارة يهتدي بنورها الغرقى في بحر هذا العالم العجَّاج . انت الارغن الحيّ الذي يتغنى بهِ الروح القدس فيطرب كنيسة الله . . . »

فنعم المديح الذي نكرّره نحن ايضاً في هذه السنة اليوبيليَّة طالبين الى صاحب العيد ان يدعو امام عرشه تعالى لهذه الكنائس الشرقية التي احبَّها محبَّة خالصة فبذل نفسهُ دونها

وقد جازاه تعالى على مساعيه ومنحهُ ان يموت في ١٢ من شهر آذار من السنة ٦٠٤

بعد ان ازال الشقاق ووطد الايمان في كنائس الشرق والغرب معاً ورأى شعوباً جديدة مقبلةً الى حجر الكنيسة اهتدت اليها بهمته واستقت من مناهل الخلاص كالقوط في اسبانية والسكسونيين في انكلترة

ولمَّا دُفن جسدهُ الكريم في كنيسة الواتيكان كُتب على ضريحه هاتان اللفظتان فقط وفيهما ملخَّص حياته « فتصل الله » اشاروا بذلك الى حبه لله تعالى الذي حملهُ على ان يتجند لربه ويدافع الى آخر نسمة من حياته عن حقوق الله كما يذبُّ الفتصل عند الرومان عن حقوق الدولة وينتصر لصوالحها من اعدائها

اما كتبة حياته فخصُّوا به هذا النص من سفر ايوب (٢٩ : ١٢) وهو اصدق مديح يقال فيه وبه نختم مقالتنا : « كنت أُنجي البائس المستغيث واليتيم الذي لا معين له فتحلَّ عليَّ بركة الهالك واجعل قلب الارملة متهلِّلاً لبستُ العدل فكان كساني وما يوح قضائي حُلَّتي وتاجي . كنتُ عيناً للاعمى ورجلاً للاعرج وكنتُ ابا المساكين استقصي دعوى من لم اعرفهُ واحطِّم انياب المتعدي . . . وقد تجدَّد مجدي لديَّ وازدادت قوسي قوَّةً في يدي »

كتاب اصول الدين

لعبد يشوع مطران نصيبين

للشاب الاديب يوسف غنيمة البغداديّ

كم من عالم أريب وكاتب أديب قد اندرس اسمهُ وانمحى ذكرهُ . وقد أباد حدثان الدهر تآليفهُ الجليلة وعفا رسوم مآثره العديدة . وكم من مصنَّفات للعلماء الكلدان لا تزال مهملة في زوايا النسيان . ومن عدادها الكتاب الذي نحن بصدده والذي عنونهُ صاحبهُ الجهبذ الخطير « بالدرة الثمينة في أُصول الدين » فقبل ان آتي على وصفهِ يحقّ لي أن اتلذذ على صفحات مجلَّة المشرق الغرَّاء سيرة مُصنفهِ الفاضل الذائع الصيت

ان عبد يشوع الصوباوي هو احد فحول كتبة النساطرة الكلدان الذين برزوا في